

الحقيقة

وراء مختلف الظاهرات

بقلم حضرة الاستاذ الجليل والكاظم التقدير حنا افندي خباز

(١)

في الكون امران ، الظاهرات المختلفة ، والوحدة وراء تلك الظاهرات .
فالحيوانات البكم ، والذئب الملتحمون بالحيوانات ، يدركون الظاهرات فقط ، ولا
يلغون الحقيقة التي وراءها . فلا يرون سراها ، ولا يسمعون ولا يشمون ولا
يلمون . فالظاهرة عندهم كل شيء . فطالب هؤلاء ، ومطاعمهم ، ووجودهم ،
وآثارهم ، واولهم وآخرهم محصورة في الظاهرات . فحيوانات يرلدون ، وحيوانات
يعيشون ، وحيوانات يموتون .

قد يكون هؤلاء منزلة عالية في مراتب الهيئة الاجتماعية . كما لو كان أحدهم
تاجراً او حاكماً او كاهناً مثلاً . وقد يسيطر على الالوف والملايين من البشر ،
ومع ذلك فهو حيوان ابن حيوان ، ولا يرى الى ما هو ابعد من انفه . فعنده السبورة ،
التي يرسم عليها الطلاب اشكالهم الهندسية هي كل شيء . وكل ما في الوجود ، في
حسابه ، هو ما يراه بعينه ، ويلسه بيده ، ويضعه في جوفه ، ولا حظ له في الخلود .
يؤلف هذا الصنف القسم الاكبر من اناس في كل قارات الدنيا في كل العصور .
ولكن هنالك صنفاً آخر ، هو اقل عدداً ، واجل شأناً ، واوفر نفعاً من ذلك .
وهو صاحب النظر الثاقب . الذي عنده السبورة ، وما عليها ، رمز واشارة فقط الى
الحقيقة ، وليست الحقيقة ذاتها . وهو يدرك ثاقب بصيرته الحقائق التي يراد تجليتها
بواسطة تلك الرموز والرسوم على السبورة (الروح الاسود الكبير) .

يصحب افراد هذا النوع اخوانهم الحيوانات البشرية الى دار التمثيل .
ويجلسون الى جانبهم ، ويشاركونهم في مصادمة سطحيات الامور . فيرون وجوه
الجان المثلثات ، ويسمعون اصوات المثلثين البديعة . ويشهدون الوقائع التي تمثل

على المسرح . ويقفون على فصول الرواية أو المسألة . على أنهم لا يقفون عند تلك
الظواهر . بل يرون ما لا يراه آخوانهم الخيوانات من الخفايا التي وراء تلك
الظواهر . والتي هي المقصود بالمسرح ، ولاجلها وجد فن التمثيل . وإن هذه
النصول ، والحركات ، والأدوات ، والمظاهر كلها ، ليست إلا إشارات ورموز
يراد بها تجلية تلك الخفايا

فيري هؤلاء ، المذكورين بواسطة المسرح والتمثيل الخفايا التالية :

١ : حقيقة الفن الزاقي ومحسناته ، والتناسب بين أجزائه ، وحسن

الاندماج والايضاح

٢ : حقيقة الرواية التي تمثل ، والغرض الذي لاجله الفنت ومثلت . من حب

وعهد ووفاء وغيره وحكمة وعدالة الخ

٣ : الحقيقة السكونية وراء الواقعات المثلثة . وهي آخر ما تنتهي اليه الساعي

البشرية . ويرون موضع تلك الحقيقة في سلم النشوء العام ، الذي يمثل ادوارها الحكماء
والشعراء والملائكة والالهة ، في كل ادوار التاريخ من الازل الى الابد .

وبهذا الاعتبار يكون لصاحب النظر انثاقب فلك اوسع جواً من فلك اخيه
الحيوان ، وله ايضاً جوارح . واناس اعرق ، وارتقاء اسنى . وكلما ارتقى
الانسان في هذا الوجود اتسع محيطه الكروي ، وبعد نظره ، وطالت اشعة مداركه ،
ذلك مقام عظيمة النابغين في كل الادهار

(٢) ماذا يرون

وماذا يرى الثاقبو البصائر والاذكياء العقول ؟

الجواب : أنهم يرون الوحدة الاساسية وراء مختلف الظواهر . مثلاً . يرون
انواع الناس ، من اسود وايض ، واصفر واحمر واربد ، وطويل وقصير ، وغني
وفقير ، وسين وهزيل ، واشعر واجرد ، وشيخ وقبي ، وذكر واثنى . ويرون
المصري والسوداني والسوري والعراقي والمغربي والعجمي والاربي . وفي هؤلاء
يرون الصانع والزارع ، والطامع والقانع ، والكاهن والكاظم ، والحاكم والطبيب

والثاني والحكيم وغيرهم . ولكنهم يرون وراء كل هذه الاختلافات من الظواهر حقيقة واحدة هي

« الإنسانية »

التجارية في كل من اوتلك الافراد والاجناس . فهما تختلفانوارقهم فلانسانية ارومتبهم وهم فروعبا وبجاليايا . فللابيض انسان ، والاسود ايضاً انسان . والاوربي انسان والاسيوي ، بل والافريقي ايضاً ، انسان . والتفكير كالفني انسان والذكر كالتنبي ، والبسيط كالعالم . والشرقي كالفربي . واذا فحست بنيتهم انشربحية وجدنتهم سواء بسواء . ففي كل منهم ٢٠٨ عظامات ، وستة عضلة ، وقدر معلوم من المجموعات الحسية والدورانية والتنسية والمعدية ، وكلهم يعتمدون في حياتهم على الاوكجين ، وللكل منهم درجة واحدة من الحرارة ، سواء سكن الدائرة القطبية المتجمدة او المنطقة الاستوائية . وكلهم بشر ، ضعاف امام الكوارث ، يخافون النقر والمذلة ، واذا مات من مجبونه بكوه بالدمع السخين ، وكلهم يجزع للخبر المفزع ، وكلهم عرضة للخطوب . وكلهم تحت ساطة الانفعالات النفسانية ، من فرح وحزن ، وخوف وأمن ، وبأس ورجاء . وكلهم واحد في علاقتهم الاهلية ، ونسبهم العائلية . فالاب أب ولو ملكا . والزوج زوج ولو فيلوفوا . والمريض مريض ولو قائداً كبيراً . يأنم ويشن كالطفل الصغير .

يقال أحد الفلاسفة : — ان مظاهر الانسانية مختلفة على سطح مشهدها . ولكن تحت ذلك السطح حقيقة الانسانية ، وحاجاتها ، واشواقها وادواؤها ، واحدة

وأروم ان اتعمق ، أو اتوسع ، قليلا في التمثيل . فتمايز حدد الانسانية التشريحية والاجتماعية الى الحدود العقلية ، فاقول : يختلف الناس عقلا ، كما يختلفون جسما . ففيهم اللبيب والبايد ، كما فيهم الاسود والابيض . وفيهم الناطق والعي كما فيهم الطويل والتصير . وفيهم المولد والمقلد ، والمتندر والضعيف ، والحمر والمقيد ، والمتقدم والمتختر . اركب غارب الاسفار ، وطف حول الكرة الارضية ، براً وبحراً ، سهلاً وجبلاً ، شرقاً وغرباً ، او تصفح الكتب والاسفار ، وطالع

إخباره العاشرين والعاشرين - وزن وقايس وتمعن : تر ظاهرات العقول والادراك
تعدد تعدد الافراد من الناس . من الطفل الرضيع الى الشيخ الاشبب ، ومن
الجهوتنوني المنحط الى ارفى اوردني أو امركي - وليكن وراء تلك الظاهرات
المتنفة وحدة عقلية ، كما ان في جميعهم وحدة انسانية . أعني ان في كل فرد عقلا
وعاطفة وإرادة . وفي كل عقل ناموس منطقي للفهم والحكم على السواء . وذلك
أساس اتزانهم بين أفراد الناس في مختلف الاماكن والازمان . فيحكون حكماً
واحداً ، مسلماً به عند العموم وهو ان $2 \div 2 = 2$ و $0.4 = 5 \times 5 = 25$ وان
الكل اعظم من جزئه ، وان المعلول لا يتقدم على علته . هذا هو اساس العلوم
والاحكام واتزانهم - هذه البداهة والمقررات - ولولا وحدة المنطق في نفوسهم لما
تشكلت هيئة ، ولا نشأ علم ، ولا سن قانون . بل كان البشر فوضى شاردين ،
كذرات الهباء في ادوار التكوين الاولى لا رابط ولا نظام .

(٣) الدوائر الحيوية

ولروم ان اوسع الدائرة فادخل فيها غير الانسان من الاحياء
هل فكرت يوماً في طوائف الحيوانات ، وفصائل النبات ؟ ما اكثرها ،
وما اوعى انواعها ومميزاتها ؟ طوائف الحيوان الكثيرة العدد ، الثلاثة الاشكال
والانواع . من زواحف وسوايح وطائرات ، في البر والبحر والهواء . من صغير
وكبير وما بينهما . من اصغر الميكروبات ، الى اكبر التيلة والحيتان . من ذوات
ثدي ، وقترات وحواقر ، وهلاميات ومعقدة النخاع . بعضها يلد ، وبعضها يبويض
وبعضها يتحول من دود الى فراش . وبعضها يعيش على نفقة غيره كالعلق في
الحيوان ، والنظر في النبات ، والعند في الاخشاب . ولكن وراء كل تلك الطوائف
والفصائل والعائلات حتمية واحدة تجمعها كلها وتنبط في كلها نوعاً وفرداً . وتلك
الحتمية هي

« الحياة »

التي تتصف بها كل انواع النبات والحيوان ، ويجليها في حياته واعماله .

وتبزهأ عن سواها من الجوامد غير العضوية . فقد مر بنا من الحقائق ما يبلى

أولاً : الحقيقة التشريحية — الفسيولوجية

ثانياً : الحقيقة العقلية — المبكولوجية

ثالثاً : الحقيقة الحيوية — البيولوجية

وكل من هذه الحقائق مستمر وراء ألوف من الظواهر ، تتجلى في ملايين

الملايين من الافراد ، في ملايين الملايين من الاديان

(٤) في قبة التلاك

وهناك دائرة أوسع ، وكرة مجوفة أحوط كثيراً ، من كل ما ذكرته من

الدوائر الحيوية والانسانية والعقلية ، وهي دائرة ، أو دوائر ، الافلاك السموية ،

بأروم ان اتسلق سلم هرشل وكبلر وتبخو براهي ومينخائلسن واضرب في عرض

النضاء متعكراً على نظريات بيكن ودي كارل ونيوتن وهينل . ساحة نفسي

في رحاب هذا النضاء المحبوب الذي لا يسد جوعها سواه . والنقل بين مختلف

الاجرام ، من قر وسيار ونجم ثابت وعنقود وسديم . فأرى في رحاب هذا النضاء

أكثر من ألفي مليون شمس ، منتشرة في جوف هذه الكرة الفارغة ، مختلفة

الحجوم والاقدار والابعاد ، هي مركز النظم ، وحولها تدور سياراتها . أقول ذلك

قياساً على المختبر في نظامنا الخاص ، والمقايمة جائزة متى تشابهت الاوضاع

تصور في عقلك كم سيار حول ألفي مليون نجم ثابت . ثم تصور كم قر حول

سياراتها . عدا عما يمكن اقتراضه في كل نظام — في الالفى مايون نظام — من

النجوم والحلقات والمذنبات وغيرها . فالراصد الذي هو من الصف الحيواني ،

الذي لم يتصلح من علم الفلك ، ولم يحيط بالثاقب من المدارك ، يرى بمرصده هذه

الاجرام النيرات البديعة ، تزين السماء في دجى الليل الخالك . فتسر بها نفسه ،

وقد بشدو بوصفها . ويقف عند حد الظواهرات ، لا يتحرقها الى ما وراءها . فهو

كالبليد أمام مسرح التمثيل لا يرى غير ظاهرات الفصول والمشاهد . أو كالولد

أمام البورة ، لا يرى سوى تلك النقط البيضاء على الصفحة السوداء . أما الفلكي

أما النجم المعروف بابط الجوزاء ، في صورة الجبار ، فبعده عنا مئتا ألف سنة
 فبرانية . فلوركب ملك شعاة النور من ابط الجوزاء ، وجادنا بسرعة ١٨٦٠٠٠
 ميل في الثانية ، ولم يعترضه معترض في سيره ، لوجدنا بمدة مئتي ألف سنة .
 فإذا أمكنك أن تتصور عظمة هذا الكون ، على ما تفيدده الحقائق العلمية ،
 فإنك ولا شك ستقف في مركز الكرة المحيطة خاشعاً حترأ . وترى انك قطعة
 هندسية ، لها وضع وليس لها امتداد . ولكنك تدرك بسهولة ان كل الاجرام
 التي أشرت اليها ، على اختلاف أبعادها وأقدارها . وحجومها ، هي ظاهرات
 حقيقة واحدة وراءها . يربطها ناموس واحد رعاها منذ وجودها . ولولا الناموس
 العامل بها ، والغفل الذي يتلف ذلك الناموس بآثاره ، لما كان نظام ، ولما كان
 علم يدرك النظام . فهذا الكون الواسع الأمد ، البعيد الاطراف ، له مظاهر عديدة
 ولكن حقيقتها واحدة . وليس هو الا دولاب واحد ، كثير الاشعة ، يدور بقوة
 واحدة ، تجلي به . تلك القوة التي نشدها الحكماء والشعراء والانياء من عهد
 هيرفيلطس وموسى وميتيس ، وما زالوا ولن يزالوا ، الى ما شاء الله . وان تقدم
 البشر في مضمار الارتقاء والقوة فليس بما كسبنوا من أثارها ، وسبروا من
 أغوارها ، وعرفوا من أسرارها .

ف وراء قمرنا وغنانا ، وجبلنا وعلنا ، وحياتنا وموتنا ، ووراء آماننا وآلامنا ،
 ووراء أمواج العقل المتلاطمة في بحر هذا الوجود ، وراء طوائف الحيوان والنبات ،
 ووراء الاجرام السابحة في الفضاء — وراء كل هذه الظاهرات — حقيقة سرمدية
 هي الغافل في كل حوادث الكون . من أول حركة في السديم الى آخر حركة في
 السديم . وكل ما انطوى عليه كتاب المجالي من حل وتركيب ، ووصل وفصل ،
 ليس الا فتايق على صفحات هذا الغمر العظيم . وما هي تلك الحقيقة ؟

هي الجمال الذي هواد نفوسنا ، على ما بينه أفلاطون . أو هي الجمال الكلي
 الذي عنه تصدر كل ظاهرات الجمال واليه تعود العقول والتلوب

يا شمس كل الوري لولاك ما بزغت شمس ولا لاح في جنح الدجى قمر
 قد سبحتك النجوم الزهر شاهنة . يا نك . الله . والآصال . والسحر